بسم الله الرحمن الرحيم
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ

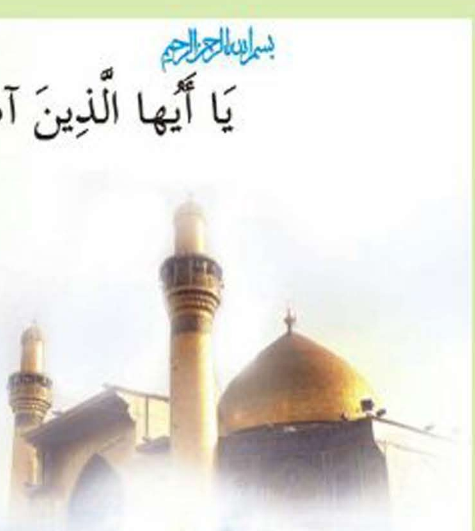

الصادقين

الإسلام محتاج الى جميع أبنائه

الخميس ٤ شوال ١٤٣٨ هـ / ٢٩ حزيران ٢٠١٧ م العدد ١٧٣

نشرة نصف شهرية تصدر عن المكتب الاعلامي متخصصة بنقل احاديث و خطابات وفتاوي واخبار سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله الشريف)

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

حوار عن الدولة المدنية والعلاقة مع العلمانيين وإشكالياتهم والتجديد في قراءة النصوص الشرعية

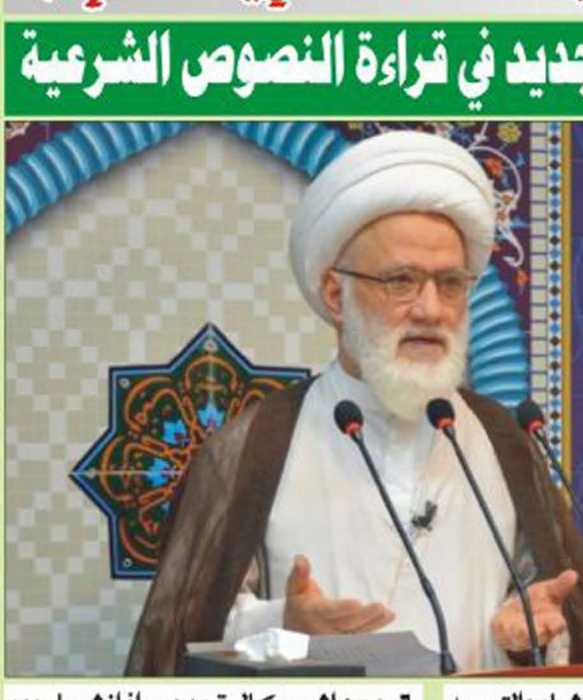

أجرت(١) قناة (الحرة- عراق) لقاءً موسعاً مع سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) تناول عدة قضايا مثيرة للجدل وتستحق القاء الضوء عليها، ونذكر ادناه جملة من الاضاءات التي تفضل بها سماحة المرجع:-

١- التفريق بين الدولة المدنية والعلمانية، اذ المطلوب دولة مدنية متحضرة بكل ما تعنيه المفردة لكن لا يلزم من كون الدولة مدنية أن تكون علمانية كما يروج البعض، فان الدين لا يتنافى مع المدنية بل يؤسس لها، وتجربة الإسلام مع العرب خير شاهد على ذلك، فقد كانوا قبائل متناحرة تعتاش على القتل والسلب وتنتشر فيها الفواحش والآثام فصنع النبي (ص) منهم بالإسلام أمة قوية متماسكة حضارية وازدهرت عندهم العلوم والمعارف وتعترف الحضارات المعاصرة انها مدينة لتلك النتاجات العظيمة.

٢- تقوم الدولة على أساس المواطنة، والمواطنون جميعاً متساوون في الحقوق والواجبات التي تقرها القوانين من دون تمييز بسبب الدين أو العرق أو أي انتماء آخر.

٣- الدولة الإسلامية تكفل حقوق جميع الأقليات على اختلاف عقائدهم وايديولوجياتهم، وهكذا كان الأمر في زمان حكومة النبي وأمير المؤمنين (صلوات الله عليهما) بل حتى في زمان الحكومات المنحرفة كالأمويين والعباسيين، فلم يقتل أحد لأنه ملحد أو كافر أو مشرك، وكان الملاحدة يحضرون موسم الحج ويسخرون من عقائد المسلمين وشعائرهم ولم يتعرض لهم أحد، ودخل الائمة (سلام الله عليهم أجمعين) معهم في مناظرات مفصلة تجد جملة منها في كتاب (الاحتجاج).

اما عمليات الخطف والقتل والإرهاب التي تحصل اليوم ويراد الصاقها بالإسلام السياسي فانه بريء منها، وان الحصة الأكبر من ضحايا العنف هم من غير العلمانيين، فهذه العمليات ليست جزءاً من الصراع بين الإسلام والعلمانية وانما هي صراعات سياسية بين اجندات داخلية وخارجية وحرب مصالح وتقاسم مغانم وتوسيع نفوذ ونحو ذلك.

٤- وحول استعمال (اليد) كمرتبة من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكيفية انسجام ذلك مع وجود دولة مدنية وقانون، أجاب سماحة المرجع: ان استعمال اليد بالضرب ونحوه مرتبة متأخرة من وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تبدأ بالموعظة الحسنة والإرشاد والتوجيه والتوعية، وان مرتبة اليد مشروطة بإذن الحاكم الشرعي، وهو لا يأذن باستعمالها لأنه لا يملك هذا الحق وفق القوانين النافذة ولما فيها من اختلال النظام الاجتماعي العام والفقهاء مجمعون على ان حفظ هذا النظام أولى بالمراعاة وأهم من سائر الاحكام الفرعية فيقدم عليها، وقد أقام الائمة (ع) ومراجع الدين عبر التاريخ مشروعهم ومؤسساتهم في ظل الدولة القائمة والقوانين التي تراعي مصالح العباد.

٥- وعن إشكالية الحكم بنجاسة بعض فئات المجتمع كالكفار والمشركين وتعارض ذلك مع مبدأ التساوي على أساس المواطنة والتعايش، قال سماحته: بالنسبة لي فقد بحثت المسألة في موسوعة (فقه الخلاف) وذكرت الأدلة على طهارة كل إنسان الا اذا خرج عن القانون الذي ارتضاه الناس واقروه واصبح عنصر إفساد وفتنة في المجتمع فيحكم بنجاسته كإجراء رادع من خلال تطويقه وعزله اجتماعياً واشعاره بالدونية وانه خارج عن الاطار العام للمجتمع، فالكافر لا يحكم بنجاسته من جهة انه مختلف عقائدياً مع المسلم وانما اذا اصبح عنصر إفساد وفتنة في المجتمع المسلم.

٦- وعن إشكالية عدم جواز انشاء دور عبادة جديدة للملل الأخرى في بلاد المسلمين أو التبشير بعقائد وايديولوجيات مخالفة للإسلام قال سماحته ان هذا الاشكال نظري لا موضوع له في الخارج لان الفقيه ليست لديه سلطة حتى يمكن ان ينفذ مثل هذه الاحكام، وانما يذكرها بعض الفقهاء في بطون الكتب فقط ولا واقع عملي لها، والأمر يرتبط بالقوانين المعمول بها في تلك البلاد والتي تمثل توجهات الأغلبية مع احترام حقوق الأقليات بحيث لا يكون فيها تجاوز على حقوق الأكثرية، وهذا معمول به في البلدان المتحضرة، مثلا هل تسمح القوانين الألمانية بالتبشير للنازية وتمجيد هتلر، أو هل تقبل القوانين الاسرائيلية نفي مذبحة الهولوكست مثلا، وان عدداً من الدول الأوربية منعت ارتداء الحجاب في المؤسسات الرسمية لأنه يخالف منهجها العلماني مثلا.

٧- النصوص الشرعية صنعت من قبل الله تعالى ورسوله الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى بحيث تستوعب كل تغيرات الزمان والمكان ومواكبتها للظروف المستجدة وتلبيتها لحاجة البشرية الى القوانين التي تنظم حياتها، ولذا لم يتوقف الفقهاء عن إعطاء الحكم الشرعي

التتمة في الصفحة الرابعة

(١) تاريخ اللقاء ١٥ رمضان ١٤٣٨ الموافق ١٠/٦/٢٠١٧ وعرض في برنامج (لقاء خاص) يوم ١٩/٦/٢٠١٧

(٢) دعائم الإسلام ج٢ ص٣٢٠ ح١٢٠٧. وشرح نهج البلاغة: ج٢ ص٣٤٠ الرقم ٨٩٢

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾(٣)

قال الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار:٦) وهو خطاب موجه الى الانسان على شكل سؤال واستفهام لكنه ليس لطلب المعرفة لان الله تعالى محيط بكل شيء علما، وانما هو استنكاري لتوبيخ وعتاب المخاطب وتعجب من عصيان الانسان لربه الكريم وتنبيه العاصي لقبيح فعله، فظاهر السؤال عن العلة وسبب الاغترار وحقيقته عن النتيجة وما حصل بالاغترار أي محاسبته على ما صدر منه من معاصي فيسأله ما الذي غرّك بربك ودفعك وسوّل لك حتى عصيت ربك الكريم وتمردت عليه، وهذا فعل مخالف للفطرة الإنسانية التي توجب مقابلة الإحسان بالإحسان، لذا يصفه أمير المؤمنين (ع) بقوله (أحمق الحمق الاغترار)(٤).

وقد ذكرت الآية عدة عناصر تجعل الحجة أبلغ والتوبيخ أعنف:

((أولها)) توجيه الخطاب اليه بما انه انسان عاقل مدرك للمسؤولية ولقواعد التعامل وقد أنعم الله تعالى عليه بنعم لا تعد ولا تحصى وقد ذكرت الآيات التالية بعضاً منها ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار:٧) الخ، وليذكره بأن انسانيته من أعظم النعم ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون:١٤).

((ثانيها)) ويقول له: انك بمعصيتك تجاوزت على ربك الذي تولى تربيتك ورعايتك وصناعتك ودبّر شؤونك كلها وانت لا تعلم.

((ثالثها)) وتعديت على الكريم الذي أغدق عليك النعم من دون مقابل ولا توقع نفع منك فإنه تعالى غني عن العالمين، وقد كان من كرمه أنه حلم عنك ولم يعاجلك بالعقوبة وفتح لك باب التوبة والرجوع ولم يمنعه طول العكوف على المعصية من الاستمرار في إحسانه، ولم يقف كرمه عند العفو عن السيئات بل يبدلها إلى حسنات وغير ذلك من مظاهر الكرم.

والتغرير: الخداع والاستغفال والتجهيل بإراءة ظاهر محبوب تميل اليه النفس لكنه لا حقيقة له واخفاء الباطن والحقيقة حتى يسوقه الى الغرض الذي يريده على غفلة منه فإثارة السؤال فيه تنبيه من الغفلة والفات نظر الانسان إلى ما هو عليه من حالة الاغترار الذي ادى به لهذا التجاوز الكبير وتحذير من الوقوع فيه، عن أمير المؤمنين (ع) قال (سكر الغفلة والغرور أبعد إفاقة من سكر الخمور)(٥).

والمستفاد من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة أن أسباب الاغترار الموجب للوقوع في المعصية عديدة منها:

١- المظاهر الدنيوية الخداعة من مال وجاه ومناصب وانتماءات وعصبيات ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (الأنعام:٧٠) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران:١٨٥) أي الخداع والوهم، عن أمير المؤمنين (ع) قال (لا تغرنك العاجلة بزور الملاهي، فإن اللهو ينقطع ويلزمك ما اكتسبت من المآثم)(٦).

٢- تزيين إبليس وجنوده ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان:٣٣) والغرور صفة مشبهة لكل من تأصل فيه تغرير الآخرين لذا فسّر بالشيطان لانه كذلك ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (النساء:١٢٠).

٣- أماني النفس واهواؤها وميلها الى اللذات واتباع الشهوات والعجب والاتكال على الذات ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (الحديد:١٤).

من وصية النبي (ص) لابن مسعود (لا تغترن بصلاحك وعلمك وعملك وبرك وعبادتك)(٧) وروي عن أمير المؤمنين (ع) قال (جماع الشر في الاغترار بالمهل، والاتكال على العمل)٦ وقوله (غرور الأمل يفسد العمل)٦ وقوله (كفى بالمرء غرورا أن يثق بكل ما تسوّل له نفسه)(٨).

٤- مكر شياطين الانس وطواغيتهم ودجاليهم والخداع والتضليل الذي يمارسونه والشبهات التي يلقونها ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (آل عمران:٢٤). روي عن الامام الباقر (ع) قوله (لا تغرنك الناس من نفسك، فإن الأمر يصل اليك دونهم)(٩) أي لا تغرنك الناس من حولك ويوهمونك بأمور تسبب اغترارك، فإنك المسؤول عن افعالك وسوف يتخلون عنك ولا ينفعونك بشيء وعن الامام الصادق (ع) (لا يغرنك بكاؤهم، فإن التقوى في القلب)(١٠).

ومنشأ الوقوع في هذه الاسباب يرجع الى الجهل روي عن رسول الله (ص) انه لما تلا الآية عقب مجيبا على السؤال: (جهله)(١١)، هذا الجهل يشمل جهل الانسان بربه وحقوقه عليه ولزوم طاعته وعليه أن يؤثر رضا ربه على رضا نفسه أو أي أحد من المخلوقات، وان يتيقن انه بمحضر خالقه وتحت نظره سبحانه (عميت عين لا تراك عليها رقيبا)(١٢)، والجهل بمبدأ الانسان ومعاده ومآله، والجهل بحقيقة الدنيا الزائلة، والجهل بحقيقة الشيطان ومكره وخدعه وعداوته لبني آدم ونحو ذلك.

اما الانسان الصالح فانه كلما ازداد معرفة بربه الكريم يزداد طاعة ومحبة له تبارك وتعالى ويزداد خوفا من عصيانه وغضبه سبحانه (سبحانك ويحمدك من ذا يعرف قدرك فلا يخافك، ومن ذا يعلم ما انت فلا يهابك)(١٣).

لذا قد ينسب التغرير الى أسباب أخرى ليست هي بنفسها موجبة له، لكن الانسان لجهله وغفلته عن حقائق الأمور وعواقبها اغترّ بها كحلم الله تعالى وعدم اخذه العاصين بالعقوبة عند صدور كل ذنب، واغداقه النعم على الكفار، وستره على قبائح العباد، وهذه كلها من الصفات الحسنى وكرم من الله تعالى ورحمة بالعباد لكن الانسان لجهله يسيء الاستفادة منها قال الله تبارك وتعالى ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران:١٩٦-١٩٧) أي لا تجعل حلم الله تعالى بإمهال الكفار وعدم معالجتهم بالعقوبة سببا للاغترار والغفلة عن الحساب والعقاب.

وفي دعاء الامام السجاد (ع) في ليالي شهر رمضان المعروف بدعاء ابي حمزة الثمالي (ويحملني ويجرئني على معصيتك حلمك عني، ويدعوني الى قلة الحياء سترك علي، ويسرعني الى التوثب على محارمك معرفتي بسعة رحمتك، وعظيم عفوك) (١٤) وفيه أيضا ﴿الهي لم اعصك حين عصيتك وانا بربوبيتك جاحد، ولا بامرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض، ولا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة عرضت وسولت لي نفسي، وغلبني هواي، واعانني عليها شقوتي، وغرني سترك المرخى علي)١١.

اذن بهذا التقريب يمكن فهم معنى نسبة الاغترار الى حلم الله تعالى أو كرمه أو رحمته، وهذا دفع بعض المفسرين الى القول: ((وانما قال الكريم دون سائر اسمائه وصفاته لانه كان لقنه الإجابة حتى يقول غرني كرم الكريم))(١٥). وهذا التلقين بحد ذاته مظهر آخر للكرم الإلهي.

لكن السيد الطباطبائي (قده) اعترض على هذا الفهم قائلا: ((ومن هنا يظهر ان لا محل لقول بعضهم: ان توصيف الرب بالكريم من قبيل تلقين الحجة وهو من الكرم ايضا، كيف؟ والسياق سياق الوعيد، والكلام ينتهي الى مثل قوله ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۞ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الانفطار:١٤-١٥)، ولو كفى الانسان العاصي قوله ((غرني كرمك)) لصرف العذاب عن الكافر المعاند كما يصرفه عن المؤمن العاصي، ولا عذر بعد البيان))(١٦).

أقول: لا نجد وجها للاعتراض:

١- لان هذا المعنى وارد في كلام المعصومين (ع) كما تقدم.

٢- واتضح مما تقدم ان الكرم والرحمة ونحوهما ليست هي السبب المباشر للاغترار الانسان حتى يعترض عليه، وانما السبب سوء استفادة الانسان منها وهي حالة موجودة حتى مع كرام الخلق كما في الرواية (ان علي بن الحسين (ع) دعا مملوكه مرتين فلم يجبه فلما أجابه في الثالثة قال له: يا بني اما سمعت صوتي قال: بلى، قال: فما بالك لم تجبني، قال: أمنتك، قال (ع): الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمنني)(١٧).

٣- ان هذا الاعتراف لا يفيد العاصي بل يوجب استحقاقه للعقوبة المضاعفة، لانه قابل الكرم والحلم والعفو بالعصيان والتمرد واغتر بالحسنة والنعمة فحولها الى سيئة ونقمة بدل شكرها وأداء حقها وأمن مكر الله تعالى، واذا نفعه هذا الجواب فلما فيه من الاعتراف بسعة كرم الله تعالى حتى طمع في معصيته وهذا الاعتراف أمر يحصل في الآخرة ولا علاقة له بمعاصيه في الدنيا.

٤- ان الكافر لا يستطيع ان يقول هذا الكلام لانه لم يكن يعتقده ولا يعرفه، وليس كرم الله تعالى الذي غره بالمعصية

التتمة في الصفحة الثالثة

(٣) الخطبة الأولى لصلاة عيد الفطر المبارك يوم الاثنين ١ شوال ١٤٣٨ الموافق ٢٦/٦/٢٠١٧ (٤) غرر الحكم: رقم ٢٩١٥ (٥) غرر الحكم: رقم ٥٦٥١ (٦) غرر الحكم: رقم ١٠٣٦٢ (٧) مكارم الاخلاق: ٢/ ٣٥٠ (٨) غرر الحكم: رقم ٤٧٧١، ٦٣٩٠، ٧٠٥٣

(٩) بحار الانوار: ٧٢/ ٣٢٣ ح ٢ (١٠) بحار الانوار: ٧٠/ ٢٨٣ ح ٤ (١١) الدر المنثور للسيوطي: ٨/ ٤٣٩ (١٢) مفاتيح الجنان، دعاء الامام الحسين (ع) يوم عرفة (١٣) مفاتيح الجنان، من دعاء الصباح عن أمير المؤمنين (ع).

(١٤) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي: ٢٤٠، ٣٣٥ (١٥) حكاه في مجمع البحرين: مج ٢/ ٣٦٤ مادة (غرر) عن الشيخ ابي علي وفي مادة (لقن) ايضا وذكره آخرون (١٦) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٢٤٨

(١٧) بحار الانوار: ٤٦/ ٥٦ ح ٦ عن ارشاد المفيد ومناقب ابن شهراشوب إعلام الورى (١٨) منة المنان في الدفاع عن القرآن للسيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر: ٤/ ٣٧٩ (١٩) بحار الانوار ٧/ ٢٨٧ عن ثواب الاعمال، وحكاه في هامش منة المنان: ٤/ ٣٨٢ عن تفسير القمي: ٢/ ٢٦٢،٢٦٥

(٢٠) بحار الانوار: ٩١/ ٦٣، مستدرك الوسائل: ٥/ ٣٣٤ أبواب الذكر، الباب ٣١ ح ١٣ (٢١) نهج البلاغة خطبة ٢٢٣ (٢٢) أمالي الطوسي ج ٢ ص ٧٧ (٢٣) وسائل الشيعة: ٩/ ٤٦٧ كتاب الزكاة، أبواب الصدقة باب ٤٦، ح ٦

تتمة ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

وانما غره هواه وتسويل الشيطان وزخارف الدنيا، كما صرحت الآيات الكثيرة التي اوردناها في أسباب الاغترار.

٥- ان هذا التلقين لا يفهمه الا أهل المعرفة خصوصا وان الآية لم تذكر بصراحة ووضوح: أيها الكافر والعاصي قل ((غرني كرمك)) عندما تسأل: لماذا كفرت وعصيت، وانما اكتفت بوصف الرب بالكريم وفهم أهل المعرفة من ذكر هذا الاسم دون غيره انه إشارة الى هذا المعنى، فهذا التلقين للحجة لا يفهمه الا من يستحقه ومثل هذا لا يغريه كرم الله تعالى بالمعصية وانما يزيد من الطاعات واجتناب المعاصي والاعتراف بالعجز والتقصير ((فاذا كان الفرد مستحقا لفهمها كان مستحقا لتطبيقها)) ويتحمل مسؤولياتها، اما السادرون في المعاصي والمتوغلون في الرذيلة فلا يعرفونها ولا يفهمونها ابدا، وليس لهم التوفيق في الرجوع الى مصادر التفسير))(١٨).

اقول: ولو قرأوها في التفاسير أو سمعوها من أحد فانهم لا ينتفعون بها لأنهم سيذهلون عنها.

٦- ان هذا السؤال يقع يوم القيامة بحسب الظاهر حيث يكون باب العمل والتكليف مغلقاً، وليس في الدنيا حتى يكون سبباً للتغرير بالعاصي، فقول ((غرني كرمك)) يكون لاستدرار الرحمة والعفو وليس للتمادي في الذنوب.

٧- ان السيد الطباطبائي يعلم ان هذا المعنى يليق بكرم الله تعالى، وان الله تعالى عند حسن ظن عبده، وانه عز وجل أكرم من ذلك، فقد يجيز كذب العبد اذا ادعاه تطبيقا لقوله تعالى ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ (يس:٥٧) ففي تفسير القمي بسنده عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال: قال رسول الله (ص) (إن آخر عبد يؤمر به الى النار، فاذا أمر به التفت، فيقول الجبار جل جلاله: ردوه فيردونه فيقول: لم التفت إلي؟ فيقول: يا رب لم يكن ظني بك هذا، فيقول: وما كان ظنك بي؟ فيقول: يا رب كان ظني بك أن تغفر لي خطيئتي وتسكنني جنتك، قال: فيقول الجبار: يا ملائكتي، وعزتي وجلالي وآلائي وعلوي وارتفاع مكاني، ما ظن بي عبدي هذا ساعة من خير قط ولو ظن بي ساعة من خير ما روعته بالنار، أجيزوا له كذبه فأدخلوه الجنة)(١٩).

٨- اننا انما نذكر هذه المعاني والروايات لنزداد معرفة بالله تعالى فنزداد حبا له تعالى وطاعة له سبحانه وتعلقا به ونزداد فخرا واعتزازا بأن ربنا ومولانا هو هذا الرب الكريم وليس مثل الكفار والمشركين والملحدين واللادينيين الذين لهم آلهة وهمية مزيفة (الهي كفى بي عزا أن أكون لك عبدا، وكفى بي فخرا أن تكون لي ربا). وقد استقرب السيد الشهيد الصدر الثاني (قده) إفادة الآية لتلقين الحجة، واحتمل وجها لاعتراض السيد الطباطبائي على هذا المعنى قال فيه: ((ولعل الذي حدى بالسيد الطباطبائي الى نفي هذا المعنى لكي لا يكون كلام المشهور سببا للذنوب. فجزاه الله خيرا. ولكن الباب وبين ان هذه الآية لا تعطي ذلك اطلاقا حتى ان الناس اذا قرأوا القرآن أو قرأوا التفاسير لا يكونون مطمئنين لذنوبهم، والا لو لا هذا العنوان الثانوي في الحقيقة.. وهو انسداد باب التلقين. فان الآية تعطي ذلك حقا ((غرني كرمك)). ولذا اوصي المبلغين وقادة المجتمع الا يركزوا على الروايات الباعثة على الاطمئنان والشفاعة وغفران الذنوب. لان الناس ليسوا على مستوى التطميع برحمة الله، فينفتح باب الذنوب ويستغل الشيطان هذه الثغرة للمرور الى نفوس الناس واغوائهم، وتكون ذممكم مشغولة من هذه الناحية، واذكر اني كنت ذات يوم في مجلس تعزية فصاح أحدهم (من صلى عليّ مرة لم تبق من ذنوبه مرة)(٢٠) فهذا القول قد يكون صدر من النبي (ص) غير أنه صدر للمستحق لا لمن لا يستحق، اما ان يعلن في مجلس عام فهو مصيبة من المصائب، لانها اذا وصلت الى غير المستحقين يتذرعون بها لاقتراف الذنوب واقتحام المعاصي، وحينما اعترضت على صاحب المجلس رحمه الله وكان من فضلاء الحوزة. ان لا يسمح بمثل ذلك)).

أقول: هذه المخاوف في محلها إذ ان هذا الفهم قد اسيء استخدامه لدى العامة فلا تراهم يوغلون في المعاصي والمنكرات وما تنهى أحدهم يقول ((الله كريم)) وهذا جهل فظيع بعلاقة العبد بربه، وكأنهم لم يسمعوا الآيات الكثيرة كقوله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:٧) وقوله تعالى ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ (الحجر:٤٩-٥٠) وفي دعاء الافتتاح في ليالي شهر رمضان (وأيقنت أنك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة) فلابد من وضع هذه الإشارات الكريمة في سياقها الإيجابي الذي ذكرناه في النقطة (٨) وليس سياقها السلبي، وهذا المعنى للآية انما يذكر تنبيها شاهدا على سعة كرم الله تعالى لمن يزداد به محبة وتعلقا بربه وليس فيه دفع للمعاصي والعياذ بالله بل إن فيه تأكيد للحجة البالغة على العاصين.

قال أمير المؤمنين (ع) عند تلاوته هذه الآية (أدحض مسئول حجة، وأقطع مغتر معذرة لقد أبرح جهالة بنفسه يا أيها الإنسان ما جرأك على ذنبك وما غرك بربك وما أنسك بهلكة نفسك أ ما من دائك بلول أم ليس من نومتك يقظة أ ما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك فلربما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله أو ترى المبتلى بألم يمض جسده فتبكي رحمة له فما صبرك على دائك وجلدك على مصابك وعزاك عن البكاء على نفسك وهي أعز الأنفس عليك وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمة وقد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة ومن كرى الغفلة في ناظرك بيقظة وكن لله مطيعا وبذكره آنسا)(٢١). علما بأن المؤمن الذي يتأسى بربه وصف في بعض الأحاديث الشريفة بأنه لكرمه يغري الآخر بالتجاوز عليه (المؤمن غر كريم)(٢٢) لانه لا يظن الشر والسوء ولا يحتمله في الآخر ويتغافل عنه كرما منه واحسانا في أخلاقه لا جهلا ولا لقلة فطنته ويظن الآخر أنه قد خدعه كالذي يروى عن أحد أسرى بدر حينما توسل لرسول الله (ص) أن يفك أسره ويبقيه للصبية والعيال فعفا عنه رسول الله (ص) ولما عاد الى مكة قال لقريش قال لهم: ((خدعت كريما فانخدع))، ثم أسر في المعركة التالية وأعاد نفس الطلب لكن النبي (ص) لم يمنحه فرصة أخرى وعاقبه بما يستحقه.

ويبعد عن هذا المعنى وإشكالاته فانه يمكن أن يكون إيراد لفظ الكريم لبيان أن الله تعالى لا يريد من سؤاله هذا نفعا أو فائدة لأنه كريم لا يريد بعطائه جزاء ولا شكورا ولا تضره معاصي العاصين كما لا تنفعه طاعة المطيعين وانما يراد هداية العباد وصلاحهم قال تعالى ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٤٠). ويمكن أن نفهم الآية على نحو آخر بحيث لا يكون المخاطب فيها الانسان العاصي، بل المطيع الطامع بمراتب الكمال، فيسأل ما الذي اغراك وطمعك حتى صرت تطلب هذه المنازل السامية. فيقول: أطمعني كرمك يا ربي لاني اراك تعطي الكثير بالقليل وتبتدي بالنعم من لا يستحق وتعطي من سألك ومن لم يسألك ومن لم يعرفك، فالتعجب في الآية قد يكون من انحطاط الانسان وتسافله وقد يكون من رقيه وتساميه اذا نظرنا الى الآية بمعزل عن السياق الدال على الأول. ونذكر الآن رواية عن الامام الصادق (ع) تتضمن مثالا للمغتر بما تمنيه نفسه ويملي عليه جهله، ومثالا لاغترار الناس بنماذج ظاهرها التدين والعمل الصالح الا انها في الحقيقة على العكس من ذلك، فقد روي عنه (ع) أنه قال (قوله عز وجل: اهدنا الصراط المستقيم، قال: يقول ارشدنا الى الصراط المستقيم ارشدنا للزوم الطريق المؤدي الى محبتك، والمبلغ الى دينك والمانع من ان نتبع اهواءنا فنعطب او نأخذ بآرائنا فنهلك، ثم قال (ع): فان من اتبع هواه واعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء العامة تعظمه وتصفه فأحببت لقاءه من حيث لا يعرفني، فرأيته قد أحدق به خلق كثير من غثاء العامة، فما زال يراوغهم حتى فارقهم ولم يقر، فتبعته فلم يلبث أن مر بخباز فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعله معاملة، ثم مر بعده بصاحب رمان فما زال به حتى تغفله وأخذ من عنده رمانتين مسارقة فتعجبت منه، ثم قلت في نفسي: لعله معاملة، ثم أقول: وما حاجته إذا إلى المسارقة؟! ثم لم أزل أتبعه حتى مر بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين يديه، ثم ذكر أنه سأله عن فعله..فقال له: لعلك جعفر بن محمد؟ قلت: بلى، فقال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك؟! فقلت: وما الذي جهلت منه؟ قال: قول الله عز وجل (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها)، واني لما سرقت الرغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين، فهذه أربع سيئات، فلما تصدقت بكل واحدة منها كان لي أربعين حسنة، فانتقص من أربعين حسنة أربع سيئات وبقي لي ست وثلاثون حسنة، فقلت له: ثكلتك امك، أنت الجاهل بكتاب الله، أما سمعت الله عز وجل يقول (إنما يتقبل الله من المتقين) إنك لما سرقت رغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت رمانتين كانت أيضا سيئتين، ولما دفعتهما إلى غير صاحبهما بغير أمر صاحبهما كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع سيئات، ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات فجعل يلاحظني فانصرفت وتركته، قال الصادق (ع): بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يضلون ويضلون)(٢٣).

تتمة حوار عن الدولة المدنية والعلاقة مع العلمانيين وإشكالياتهم والتجديد في قراءة النصوص الشرعية

في أي أمر مستحدث، فخلود الشريعة بمعنى توفر هذه القدرة والقابلية فيها أمر ممكن بل واقع وما علينا الا ان نحسن قراءة هذه النصوص واستعمال الآليات الصحيحة لاستنطاقها، والشيعة الامامية يتميزون عن بقية طوائف المسلمين بفتح باب الاجتهاد بمعنى أخذ الاحكام الشرعية من نصوصها الاصلية وعدم الانغلاق على فتاوى العلماء السابقين مهما ارتقت درجاتهم العلمية، وهذا كله بفضل تعاليم أئمة أهل البيت (ع). وقد أتاح الاجتهاد فرصة واسعة للاستفادة من آخر انجازات العلوم في قراءة النصوص وفهمها وحقق المواكبة المطلوبة لتغيرات الزمان والمكان، فالشريعة اذن ليست كالقوانين التي يضعها البشر القاصر المحدود والتي لا تلبث الا قليلا حتى يظهر نقصها وخللها.

٨- لا يتعرض المختلف فكريا وعقائديا لأي ضغط او اكراه أو عنف لمجرد أنه مختلف، الا اذا مارس العدوان على عقائد الناس واحداث الفتنة في المجتمع فلابد من وجود قوانين تعالج الحالة، وهذا مبدأ قرآني قال تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

وقلنا في بداية الحديث ان التاريخ الإسلامي شاهد على ذلك.

٩- نحن مستمرون في الحوار مع العلمانيين بالحجة والبرهان لأمور:-

أ- انهم شركاء لنا على هذه الأرض فيكون الحوار مع الشريك المخالف ضروريا ولا سبيل غيره لتحقيق التعايش السلمي المشترك.

ب- اننا نريد لهم الخير ونشفق عليهم ونرى ان الدين اعظم هبة من الله تعالى للبشر فلا نريد حرمانهم من هذا الخير فقد ورد في الحديث القدسي (الخلق عيالي فاحبهم اليّ أشفقهم على عيالي)(٣).

ج- ان من واجبنا نصرة المظلوم ومن يعتدى عليه ويسلب حقه، ونحن نرى في إنكار الخالق واقصاء شريعته تعديا على حدود الله تعالى وظلما للحق ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣) فلابد ان ننتصر للحق كما ان العلمانيين يعارضون بعض القوانين لان فيها عدوانا على الحرية الشخصية أو ظلما للمرأة كما يزعمون، فالله تعالى أحق وأولى بالنصرة من الخلق.

١٠- وتعرض المحاور الى الإشكالية التي يتبجح بها العلمانيون بقوة وهي ان حكم الله تعالى والدين الذي يصلح لكل زمان ومكان لا نستطيع الوصول اليه اما هذا الموجود فهي فتاوى الفقهاء المختلفة فيما بينها والقابلة للصواب والخطأ ولا يجوز أن نصفها بأنها دين الله، فدين الله غير موجود. وأجاب سماحته بان: احكام الله تعالى ثابتة عنده سبحانه وفي عالم الواقع وقد وضع لنا الائمة المعصومون (ع) طرقا وعلامات على شكل أصول وقواعد للوصول اليها فان اصبناها كانت توفيقا من الله تعالى ويعطى العامل بها أجره مرتين وان أخطأناها كان معذورا امام الله تعالى لأنه سلك الطريق الذي أمره الله تعالى به لكنه أخطأ الواقع. لكن هذا البحث عن حكم الله تعالى ليس متاحا لأي أحد وانما لخصوص من توفرت فيه القابلية المعروفة بالاجتهاد، وعليه ان لا يتجاوز النصوص الشرعية الى غيرها فلا يعمل بشيء من الظنون او الاستحسانات ونحو ذلك ﴿إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يونس:٣٦). فاذا تحققت هذه العناصر الثلاثة (قابلية الاجتهاد، اعتماد النصوص الشرعية، العمل وفق القواعد والأصول المقننة شرعا) كانت الاحكام الناتجة هي ما يطلب العمل بها والهيكل العام للدين وهي تضمن الوصول الى معظم الاحكام الواقعية المعلومة عند الله تعالى وهي كافية لحفظ دين الله تعالى فيها ويتحقق العذر عن الوصول الى الباقي ولم يكلفنا الله تعالى اكثر من ذلك بل أمرنا ان نأخذ ديننا عن هذا الطريق وليس علينا ان نصل الى الحكم الواقعي. ومن هنا يعلم ان اختلاف الفقهاء هو اختلاف داخل اطار الدين وليس في الدين نفسه، ورغم ان الاختلاف موجود في معظم المسائل الشرعية، الا ان صورة الدين والمتدين محفوظة ومعروفة للجميع فالمتدينون يشتركون جميعا بأن الواحد منهم يؤمن بالله ورسله والمعاد يوم القيامة ويصلي ويصوم ويحج البيت الحرام ويقرأ القرآن ويساعد الفقراء ويحب الناس ويحترمهم ولا يزني ولا يشرب الخمر ولا يلوط ولا يغش ولا يظلم الآخرين وغيرها كثير من الأمور الثابتة رغم الاختلافات الواسعة بين الفقهاء، فهذا هو الدين الثابت وهو محفوظ ولا تضر فيه اختلافات الفقهاء، ولتقريب الفكرة أضرب مثالا من علم الطب، فان الأطباء يختلفون في فهم الحالات المرضية وأعراضها وتشخيص الامراض وعلاجها لكن علم الطب يبقى محفوظا ويبقى يؤدي دوره المهم في حفظ حياة الانسان ولا يجوز اقصاؤه بحجة وجود الاختلافات بين الأطباء وعدم معرفتنا بحقيقة الحالة المرضية، وكذلك الدين يبقى صالحا لاداء دوره في إسعاد الإنسان وكماله على مر الأزمان ولا يضر فيه اختلاف الاجتهادات.

١١- يوجد من الفقهاء من ينظر الى تنفيذ الحدود الشرعية المقررة لبعض الخطايا الكبيرة كالزنا واللواط والسرقة على انها صلاحيات بيد الفقيه فله ايقافها او اسقاطها وقد دلت بعض الروايات على ذلك، وليست هي احكاما شرعية ثابتة، وبذلك يستطيع الفقيه من مجاراة الأعراف والقوانين الإنسانية الجارية.

١٢- العلمانيون يتهمون المتدينين بفرض الرأي على الآخر وعدم فسح المجال للمخالف للتعبير عن رأيه، لكنهم في الحقيقة هم من يمارس ذلك ويعملون بكل وسعهم لإقصاء الدين من الحياة ولا يكترثون لرأي الأكثرية ولا يعبأون بالدستور الذي ينص على عدم سن أي تشريع يخالف ثوابت الإسلام، ومن تجاربنا معهم ما حصل بالأمس القريب عند تقديم مشروع قانون الأحوال الشخصية الجعفري، وواضح من عنوانه انه يتعلق بالاحوال الشخصية التي يحق لأي أحد ان يمارسها حسب ما يعتقد فله ان يورث أمواله ويتزوج ويوصي ويوقف حسب معتقده، والقانون الوضعي فيه مخالفات لأحكام المذهب الشيعي، لذلك فان الشيعة يجرون أمورهم الشخصية خارج المحاكم على حسب الشريعة ثم يسجلونها لدى المحاكم فاردنا ان نقنن الحالة، ويعطى الشيعي حقه في ذلك كالطوائف والأديان الأخرى، فيدرج مع مواد القانون المخالفة للشريعة الخيارات التي يعمل بها الجعفري، فيوضع حكم (أ) و (ب) والمواطن الذي يراجع المحكمة يخيره القاضي بينهما، أي ان مقترح القانون الجعفري لم يطالب بالغاء القانون الوضعي الموجود، واذا وجد اعتراض على بعض فقراته فيمكن ان تناقشها اللجان المختصة في البرلمان عند تقديم المشروع لهم لاجراء التعديلات المناسبة.

لكن العلمانيين لم يكونوا منصفين ولم يحترموا الآخر ولم يقبلوا بان يتمتع كل مواطن بحريته في أموره الشخصية فمارسوا عملية التسقيط والتشويه والرفض وادعوا أمورا غير موجودة كتزويج البنات القاصرات وهذا افتراء على القانون الذي يشترط في عقد النكاح أن تكون الزوجة بالغة- أي غير قاصرة- ورشيدة لذي ويشترط اذن ولي أمرها وهو طبعا لا يرضى بتزويج ابنته القاصرة، واذا اختل شيء من هذه الشروط فان القاضي لا يصادق على صحة العقد، فهذا الافتراء الذي أثاروا به الصخب والضجيج، كان الهدف منه منع تقديم القانون اصلا، ونحن لم نرد أزيد من حقنا اسوة بالآخرين وهم أضعف من أن يمنعوه لولا معارضة بعض الجهات المتنفذة لتمريره. والازدواجية واضحة في سلوك العلمانيين فبينما يعترضون بقوة على الزواج المبكر الا انهم يشجعون الممارسات الجنسية للطلبة والطالبات في مرحلة الابتدائية ويفرضون عليهم السباحة المختلطة ضمن الدروس ولم يستجيبوا لاعتراضات العوائل المسلمة على ذلك، وللعلم فان قوانين عدد من الولايات الأمريكية تبيح الزواج في سن ١٥ سنة بل ١٣ سنة.

١٣- الخمس فريضة مالية نص عليها القرآن الكريم والاحاديث الشريفة، والخلاف في موارد وجوبها وعدم اختصاصها بغنائم الحرب موجود بين الفقهاء والبحث فيها معمق محله الاروقة العلمية المتخصصة والموسوعات الفقهية الاستدلالية. والمتدينون لا يقلدون مجتهدا الا بعد ان يحرزوا فيه أعلى درجات النزاهة والورع والتعفف عن بهارج الدنيا، والمكلف يرجع الى مرجع تقليده في أموره كلها وبعضها أهم من دفع الأموال اليه فاثارة الشبهات حول مصير الحقوق الشرعية لا تثني دافعي الحقوق الشرعية لانهم يرون بأنفسهم الجهات التي تصرف فيها كرعاية الحوزات العلمية الدينية وطبع الكتب المثمرة وانشاء المؤسسات الخيرية والمشاريع النافعة ومساعدة المحتاجين وتزويج الشباب المتعففين ونحو ذلك من الجهات الراجحة التي يفرح أي انسان محب للخير بوضع أمواله فيها. ويضاف الى ذلك ان هذا الاشكال لا موضوع له لانني أعطيت الاذن لمن عليه حقوق مالية شرعية ان يوزعها مباشرة على المحتاجين ووجوه البر والإحسان اذا كان عارفا بمواضع صرفها ويستشير معتمدي المرجعية ولا حاجة الى تسليمها الى المرجعية ويخففون بذلك علينا مؤونة البحث عن المحتاجين وإيصال الأموال اليهم. والأموال التي تصل الى المرجع ليست ملكا شخصيا له فلا يحق لورثته التصرف فيها بعد وفاته، وانما تصل اليه بعنوانه المرجعي فتنتقل بعده الى من يحل في موقعه، وعلى أبناء المرجع التصرف بما تمليه عليهم الأمانة والورع.

يمكنكم إرسال إستفتاءاتكم على عنوان مكتب المرجع الديني سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله الشريف)
العراق / النجف الأشرف / نهاية شارع الرسول أو على عنوان البريد الألكتروني : .com
موقعنا على الأنترنت : www.yaqoobi.com

جميع الحقوق محفوظة لموقع سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي